الفصل الأول
عرض المرحلة الأولى من غزوة أُحُد (قبل المعركة)
المبحث الأول
الموقف قبل أُحد والقوات المناوئة للمسلمين

القوة الإسلامية الناشئة:

يقول أ/ خلف الله: «إنها لمعجزة لن تتكرر في التاريخ أبدًا أن يتمكن المسلمون ببداية مادية ضئيلة وبإمكانيات محدودة جدًّا من التغلب على أعداء يحيطون بهم من كل جانب، وأن يؤسسوا دولة يمكنها بعد خمسة عشر عامًا من تأسيسها أن تدحر أكبر إمبراطوريتين في العالم في ذلك الوقت، ولا غرو فقد كان رائد المسلمين وقائدهم أكبر زعيم عرفته الإنسانية على الإطلاق.

فلو قارنا عدد المسلمين بعدد المشركين قبل غزوة أُحد لما وجدنا هنالك نسبة تُذكر: فعدد المهاجرين كان يتراوح ما بين مائة وخمسين ومائتين رجالًا ونساء وأطفالًا، وكان عدد نفوس الأوس والخزرج يتراوح ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف: منهم المسلمون والمتظاهرون بالإسلام والذين لم يؤمنوا بعد.

وإذا نظرنا إلى الناحية المادية وجدنا أن قريشًا قد جرَّدت المهاجرين من أموالهم، فتركوها وهاجروا، فلم يكن أمامهم سوى الكدح في طلب الرزق، إذ أبت عليهم أنفسهم أن يعيشوا عالة على الأنصار، فاشتغل بعضهم بالتجارة بما اقترضه من أهل المدينة، ومن لم تكن له دراية بالتجارة كان يشتغل بالزراعة في أراضي الأنصار.

ولم يكن الأنصار أنفسهم من ذوي الثراء الواسع بل كان الأغنياء بينهم قلائل؛ وترجع أسباب ذلك إلى النظام الذي كان يسود يثرب قبل الهجرة؛ إذ كان اليهود يستأثرون دون الأوس والخزرج بالثروة ويسيطرون على النشاط الاقتصادي فيها، ومما زاد في فقر الأوس والخزرج احتدام النزاع بينهم وكثرة حروبهم التي صرفتهم عن العناية باقتصادياتهم، وقد استغل اليهود هذا الصراع فزادوه حدة واشتعالًا حتى لا يستقر الأمر للأوس أو للخزرج أو يصفو لهم الجو، وحتى يضطر كل من الفريقين إلى العمل كأجراء لدى اليهود؛ وبذا يسهل على هؤلاء الحصول على الأيدي العاملة بأرخص الأجور.

كانت الهجرة حدًّا فاصلًا بين عهدين، فمن الناحية الاقتصادية أخذ المسلمون يتحررون شيئًا فشيئًا من سيطرة اليهود؛ وذلك بفضل براعة المهاجرين في الشؤون التجارية، وقد أوغرت هذه المنافسة التجارية الشريفة على الزعامة الاقتصادية صدور اليهود على المسلمين وأثارت حقدهم وجعلهم يترقبون الدوائر بالمسلمين.

ولم تكن هذه الظروف الاقتصادية الشديدة ذات أثر في نفسية الرعيل الإسلامي الأول الذي كان على استعداد لبذل كل تضحية لإعلاء كلمة الحق.

أما من الناحية العسكرية فقد رأينا المسلمين يخرجون إلى بدر وليس معهم من وسائل الركوب سوى سبعين بعيرًا يعتقبون عليها، وكانت تنقصهم معدات القتال كالأدرع، كما كانت قوة الفرسان معدومة؛ إذ لم يكن لهم حتى غزوة أُحد سوى فرسين اثنين، وقد عوَّض رسول الله ﷺ هذا النقص بتكوين فرقة من الرماة، وسنذكر فيما بعد أهمية هذه الفرقة في الجيش الإسلامي.

وكانت العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية الناشئة مبنية على السلم والمحافظة عليه بعقد معاهدات ترد من يجترئ على الإخلال بقواعد السلام.

أما إذا أعلنت إحدى القوات الخارجية الحرب على المسلمين كما فعلت قريش فإن المسلمين يستخدمون معها جميع الطرق المشروعة للدفاع والتي تكفل رد العدوان مع رعاية القواعد الإنسانية التي شرعها رسول الله ﷺ والتي سنبينها عند مناسبتها.

وبالرغم من ذلك كله استطاع رسول الله ﷺ أن يؤمن الدولة الإسلامية الناشئة، وأن يهزم قريشًا في بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]، كما قَهر يهودَ بني قينقاع مع أن القوة الإسرائيلية في شمال الحجاز كانت تضاهي قوة قريش في الجنوب، وسيطر المسلمون على الموقف تمامًا حول المدينة، وقد زادت قوة المسلمين بما غنموه خلال انتصاراتهم وأصبح في استطاعتهم سنة ٣ هـ أن يبعثوا سبعمائة جندي للقتال.

دراسة القوات المناوئة للمسلمين:

أ ـ قريش: كانت قريش تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة حتى اشتهر القرشيون بأنهم تُجَّار العرب، ونذكر فيما يلي المعاهدات مع الدول المحيطة ببلادهم:

١ـ مع الروم: والذي تولى عقدها هاشم بن عبد مناف، وكان يتردد على الشام، وقابل قيصر الروم فأُعجب به وطلب منه أن يتردد عليه، ولما رأى منزلته عند القيصر فاتحه في أن يكتب كتابًا لقريش يؤمِّن فيه تجارتهم فكتب له أمانًا بذلك. [**أسواق العرب ـ سعيد الأفغاني ص ١٠١، وصبح الأعشى ١/ ٣٥٨**].

٢ ـ مع ملوك اليمن: أخذ المطلب بن عبد مناف عهدًا من ملوك اليمن لمن اتجر إليهم من قريش.

٣ ـ مع الحبشة: أخذ عبد شمس بن عبد مناف عهدًا مثله من الحبشة.

٤ ـ مع كسر فارس: أخذ نوفل بن عبد مناف عهدًا من كسرى فارس لقريش.

وترتب على هذه المعاهدات القيام برحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال: وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى الشام وفارس.

وكان هذا النشاط التجاري يعتريه الفتور إذا ساءت العلاقات بين القرشيين وبين هذه الدول كما حدث حين غزت الحبشة مكة عام الفيل.

كما أن العلاقات بين العرب والفرس قد اضطربت نظرًا لاضطراب أحوال الفرس من جهة ولسوء علاقتهم مع القبائل العربية المجاورة من جهة أخرى؛ مما أدى إلى عدم انتظام العلاقات الاقتصادية وانقطاعها أحيانًا.

وكان القرشيون يحملون من أسواق الجنوب البضائع التي ترد من الشرقين الأقصى والأوسط، مثل: التوابل، والطيب، والمنسوجات، والجلد، والأسلحة، والمعادن النفيسة إلخ.. فيبيعون في أسواق العرب المحلية ما شاؤوا، ويحملون ما تبقى إلى الشام، وعند عودتهم من الشام يجلبون معهم الحبوب والأخشاب وغيرها، فيوزعون منها على الأسواق المحلية، ويحملون الباقي إلى الجنوب؛ فكانوا بمثابة الوسطاء بين إقليم البحر الأبيض شمالًا وبين الأقاليم الموسمية جنوبًا، وقد أثرت من وراء هذه القوافل التجارية بيوتات كثيرة من قريش، وكانت هذه الثروة سببًا في إيجاد سوق مالية للإقراض والسمسرة والعمولة والربا الفاحش الذي كانت تصل فائدته أحيانًا إلى ١٠٠٪ أو أكثر.

[مجلة غرفة القاهرة ـ العدد الثاني ـ فبراير ١٩٥١م مقال بعنوان (رحلة الشتاء والصيف) ص ١٣٣].

وكانت البطون العريقة في قريش تقتسم فيما بينها المناصب الكبرى، فاختص الهاشميون بالسقاية، وبنو سهم بجباية الأموال، وبنو عدي بالسفارة، وبنو مخزوم بالقبة، وبنو أمية بالعقاب، وبنو تيم بالديات، وبنو نوفل بالرفادة، وإن كان الجميع يشتركون فيها تبعًا لرغبتهم، وبنو عبد الدار بالسدانة والحجابة والندوة [(١)]، واللواء؛ ولذا نجد أن قريشًا تعقد لهم لواءها في غزوة بدر وفي غزوة أُحد، وكانت لبني أسد المشورة، ولبني جُمح الأزلام.

وقد أكسبت التجارة قريشًا [(٢)] عِلمًا بالأحوال السياسية والاجتماعية للأمم المجاورة، كما أكسبت القرشيين جُرأة وعِزة وخبرة بالرحلات ودراية بالطرق والمسالك؛ فكانت لهم مكانة خاصة في نفوس

(١) هي دار مشورة قريش، وكانت ملاصقة للبيت الحرام من ناحية الجهة الشامية من الكعبة، وكانت دارًا واسعة تقضي فيها قريش شؤونها العامة:

أ ـ في دار الندوة كانت تعقد قريش لواءها إذا خرجت للحرب.

ب ـ ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة، وفي فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت.

نقلًا عن كتاب: صور من التاريخ الإسلامي: للأستاذ الكبير عبد الحميد العبادي ﷺ ص ٨.

(٢) راجع ما كتبه د/ حسن إبراهيم حسن عن أثر التجارة في القرشيين في كتابه: تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٧٨ وما بعدها.

العرب جميعًا؛ لولايتهم شؤون البيت الحرام من جهة؛ ولسيطرتهم على الشؤون الاقتصادية في جنوب الحجاز من جهة أخرى، وقد ترتب على مركزهم الاقتصادي عقد معاهدات محلية بينهم وبين القبائل لتأمين الطرق التجارية للقوافل، فكانت هذه القبائل تكف عن النهب والسلب وتقوم بخفارة هذه القوافل، إما في نظير مبلغ معلوم يأخذونه من القرشيين، أو في مقابل إرسال بضائعهم مع القرشيين لتصريفها بمعرفتهم.

هذا من الناحية الاقتصادية.

أما من الناحية العسكرية فكانت قوة قريش لا يُستهان بها إذ كان في استطاعتها أن تعبئ خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأجود أنواع الأسلحة، مزودين بقوة كافية من الفرسان، هذا فضلًا عن وفرة المؤن ووسائل الانتقال، ولم تخرج قريش يوم بدر بألف مقاتل إلا لاستهانتها بعدد المسلمين ولقلتهم في نظرها، وقد تلافت هذا التقصير في غزوة أُحد فجهزت ثلاثة آلاف مقاتل أنفقت عليهم وسيَّرتهم حتى المدينة، وهذا ما لا تستطيعه قبيلة إلا إذا كانت منيعة الجانب واسعة الثراء.

وكان للقرشيين فوق ذلك قوة من الجيش وكانت عبارة عن طبقة من العبيد مسلوبة الحقوق العامة ومسخرة لأشراف مكة وسراتها في حالتي السلم والحرب، وبعض هذه الطبقة قد شُري بالمال، وبعضها كان من فلول الحبش بعد أن قام سيف بن ذي يزن بتحرير اليمن من حكمهم، ولما ظهر الإسلام أسرع عدد وافر منهم إلى اعتناقه، فَجَرَّ ذلك عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم، ومن هذه الطبقة: أبو رافع، بلال بن رباح، عامر بن فهيرة، وحشي قاتل حمزة ﷺ، صؤاب وهو ممن حملوا لواء قريش يوم أُحد.

ليس هذا فقط، بل كان لقريش قوة أخرى هي قوة الأحابيش، وستتكلم عليها بعد قليل.

لقد أعلنت قريش الحرب على المسلمين واستخدمت كل الطرق لإيذاء المسلمين والنَّيْل منهم: من مصادرة لأموال المهاجرين، وإثارة للقبائل، ومحاولة لاغتيال رسول الله ﷺ، كما استغلت مكانتها الدينية والأدبية لصرف القبائل عن الإسلام، وكان ذلك يسيرًا عليها إذ كانت مكة ملتقى لجميع العرب، وكانت تترصد من يؤمن فتُنزل به أشد ضروب العذاب والنكال، وكانت تستأجر الشعراء لتنفير القبائل على المسلمين وتأليبها عليهم، وكانت ترمي من وراء ذلك إلى منع انتشار الإسلام وإضعاف القوة المعنوية للمسلمين، وتجريدهم من الأنصار وحصرهم في المدينة حتى يتيسر لها القضاء عليهم.

عطف رجال من قريش على المسلمين:

لم تخل قريش ممن يعطف على المسلمين وكان ضلع معظم الذين ظلوا في مكة من الهاشميين مع المسلمين إلا أن أَحدًا كان لا يستطيع المجاهرة بذلك، وقد قوَّى انتصار بدر عزيمة هؤلاء وجعلهم يجاهرون بهذا العطف، وفي ذلك قَالَ أَبُو رَافِعٍ (كان في ذلك الوقت غلام للعباس وكان يكتم إسلامه) مَوْلَى

رَسُولِ الله ﷺ: كُنْت غُلَامًا لِلعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ الإِسْلَامُ قَدْ دَخَلَنَا أَهْلَ البَيْتِ، فَأَسْلَمَ العَبَّاسُ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الفَضْلِ، وَأَسْلَمْتُ، وَكَانَ العَبَّاسُ يَهَابُ قَوْمَهُ وَيَكْرَهُ خِلَافَهُمْ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ، وَكَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ مُتَفَرِّقٍ فِي قَوْمِهِ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرٍ، فَبَعَثَ مَكَانَهُ العَاصِي بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَكَذَلِك كَانُوا صَنَعُوا، لَمْ يَتَخَلَّفْ رَجُلٌ إِلَّا بَعَثَ مَكَانَهُ رَجُلًا، فَلَـمَّا جَاءَهُ الخَبَرُ عَنْ مُصَابِ أَصْحَابِ بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كَبَتَهُ اللهُ وَأَخْزَاهُ، وَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا قُوَّةً وَعِزًّا.

قَالَ: وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا، وَكُنْتُ أَعْمَلُ الأَقْدَاحَ، أَنْحَتُهَا فِي حُجْرَةِ زَمْزَمَ، فَوَالله إِنِّي لَجَالِسٌ فِيهَا أَنْحَتُ أَقْدَاحِي، وَعِنْدِي أُمُّ الفَضْلِ(زوجة العباس عم رسول الله ﷺ) جَالِسَةٌ، وَقَدْ سَرَّنَا مَا جَاءَنَا مِنْ الخَبَرِ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو لَهَبٍ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ بِشَرٍّ حَتَّى جَلَسَ عَلَى طُنُبِ (الحبل تشد به الخيمة) الحُجْرَةِ، فَكَانَ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِي، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ إِذْ قَالَ النَّاسُ: هَذَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ـ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَاسْمُ أَبِي سُفْيَانَ الْمُغِيرَةُ ـ قَدْ قَدِمَ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: **هَلُمَّ إِلَيَّ، فَعِنْدَكَ لَعَمْرِي الخَبَرُ**، قَالَ: فَجَلَسَ إِلَيْهِ، وَالنَّاسُ قِيَامٌ عَلَيْهِ، فَقَالَ: **يَا ابْنَ أَخِي، أَخْبِرْنِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ؟** قَالَ: **وَالله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَقِينَا القَوْمَ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقُودُونَنَا كَيْفَ شَاؤُوا، وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاؤُوا، وَايْمُ الله مَعَ ذَلِكَ مَا لُـمْتُ النَّاسَ؛ لَقِينَا رِجَالًا بِيضًا، عَلَى خَيْلٍ بَلْقٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالله مَا تُلِيقُ شَيْئًا، وَلَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ.**

قَالَ أَبُو رَافِعٍ: فَرَفَعْتُ طُنُبَ الحُجْرَةِ بِيَدَيَّ، ثُمّ قُلْتُ: **تِلْكَ وَالله المَلَائِكَةُ**، قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ فَضَرَبَ بِهَا وَجْهِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً، قَالَ: وَثَاوَرْتُهُ (وثبت إليه)، فَاحْتَمَلَنِي فَضَرَبَ بِي الأَرْضَ، ثُمَّ بَرَكَ عَلَيَّ يَضْرِبُنِي، وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا، فَقَامَتْ أُمُّ الفَضْلِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِ الحُجْرَةِ فَأَخَذَتْهُ فَضَرَبَتْهُ بِهِ ضَرْبَةً فَعَلَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً مُنْكَرَةً، وَقَالَتْ: **اسْتَضْعَفْتَهُ أَنْ غَابَ عَنْهُ سَيِّدُهُ**، فَقَامَ مُوَلِّيًا ذَلِيلًا، فَوَالله مَا عَاشَ إِلَّا سَبْعَ لَيَالٍ حَتَّى رَمَاهُ اللهُ بِالعَدَسَةِ فَقَتَلَتْهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٤٦-٦٤٧].

وقد أدى هؤلاء أجل الخدمات للمسلمين إذ كانوا يطلعونهم على ما تبيته قريش؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لأصحابه في غزوة بدر: «**مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَا يَقْتُلْهُ...، وَمَنْ لَقِيَ العَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، عَمَّ رَسُولِ الله ﷺ فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا**»، ولم يفهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ﷺ سر هذا الأمر ولا يجوز توضيحه له فقال: «**أَنَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَتَنَا وَعَشِيرَتَنَا وَنَتْرُكُ العَبَّاسَ! وَالله لَئِنْ لَقِيتُهُ لَأُلْجِمَنَّهُ السَّيْفَ**»، وقد أُسر العباس في بدر وقُتل فيها والد حذيفة وشقيقه وعمه، نسي حذيفة موقف الهاشميين من رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وغاب عنه استماتة أبي طالب في الدفاع عن رسول الله ﷺ ووقوفهم مع رسول الله ﷺ حين حاصرت قريش المسلمين في شِعب بني

هاشم مدة ثلاث سنوات، وقد صمد الهاشميون لهذا الحصار القاتل ولم يكن ليصمد له غيرهم لما عرفوا به من شجاعة وصبر ونجدة وحمية وكرم.

ثم قل لي بربك لو كان بين أعدائك أنصار ثم إنك قتلت هؤلاء الأنصار فماذا تكون النتيجة! يترتب على ذلك عدم تجاسر أحد على نصرتك وفقدانك لمصدر مهم من المصادر التي تمدك بأسرار أعدائك وأخبارهم دون أن تتكلف خسائر في الأموال والأرواح خلال بثك للطلائع، والأهم من هذا كله أنك تكون قد قمت بنفسك بتوحيد كلمة أعدائك عليك بتطهير صفوفهم من أنصارك، ثم إنه لا يجوز أن تبين لعدوك مَنْ أنصارك في صفوفه كيلا يضطهدهم أو يقتلهم إن استطاع.

لقد كان خروج الهاشميين مع القرشيين في بدر إن هو إلا مراعاة لتقاليد الجاهلية لا غير وهم ما بين كاره ومستكره، ولم يكن أبو لهب بينهم، ولو كان بينهم لقُتل لإيذائه للمسلمين، وهو وإن كان قد نجا من بدر إلا أنه لم ينجُ من زوجة العباس في مكة، فقد ضربته كما مر بنا ضربة كانت سببًا في وفاته، وكان العباس أسرع الهاشميين في مكة إلى مساعدة رسول الله ﷺ، وهذا هو السر في أنه ﷺ نص على اسمه بالذات في بدر.

حلفاء قريش «الأحابيش»:

أخطأ المستشرق اليسوعي (لامانس [P. Lammens: Bercèau de L, lslam]) في كتابه (مهد الإسلام) حين ذهب إلى أن الأحابيش إن هم إلا زنوج من الحبشة، والظاهر أنه نظر إلى اللفظ فساقه إلى هذا الوهم.

وفي الحقيقة أن اللفظ نفسه يدل لغويًّا على التجمع، هذا من الناحية اللغوية، أما من الناحية التاريخية فجميع المصادر العربية الأصيلة قد استعملت هذا اللفظ في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قريش تستأجرها قبل إسلامها للدفاع عن بلادها وقوافلها ومهاجمة أعدائها، وكان الأحابيش كما ذكر ابن إسحاق في سيرة ابن هشام عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة (منهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة)، والهون بن خزيمة (منهم عضل والقارة) وهؤلاء ينزلون في تهامة غرب الحجاز ناحية البحر الأحمر، وهنالك خزاعة وتنزل قريبًا من مكة، وكان سيد الأحابيش وقت أُحد هو الْحُلَيْسُ بْنُ عَلْقَمَةَ أَوْ ابْنُ زَبَّانَ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٢. وينظر موقفه في صلح الحديبية بالتفصيل]، وكانوا في محالفتهم مع قريش يعاملونها معاملة الحليف لحليفه، وكانت لهم كلمة مسموعة في الشؤون العامة لقريش، وكانت قريش تحترمهم لحاجتها إلى قوتهم.

ب ـ العرب عامة: كان العرب في ذلك الوقت يلتزمون الحياد حيال الصراع القائم بين مكة والمدينة، هذا مع عدم تخليهم في معاملة المسلمين عن عاداتهم الجاهلية إذ كانوا يحاولون الغارة على المدينة بين فَيْنة وأخرى.

وقد سلك المسلمون سياستين مختلفتين مع العرب تهدف كل منهما إلى تأمين مركزهم في المدينة وإلى إحكام الحصار الاقتصادي على قريش:

١ـ سياسة سلمية اتبعت مع عرب الحجاز للمحافظة على السلم في الحجاز، وقد عقد رسول الله ﷺ معهم حلفين دفاعيين هجوميين: وقد تم الأول أثناء غزوة الأبواء [كانت في صفر سنة ٢ هـ والأبواء تقع شمال المدينة بنحو ٢٨ كيلو مترًا]، وكان مع بني ضَمْرَة في الشمال، والثاني أثناء غزوة العشيرة [كانت في جمادى الأولى سنة ٢هـ]، وكان مع بني مدلج في الجنوب.

ولما كان عرب الحجاز يسيطرون على الطريق الشامي للقوافل، فإن هذا الطريق بعد موادعة قبائله أصبح تحت سيطرة المسلمين.

٢ ـ وسياسة دفاعية اتبعت مع القبائل الشرقية من ناحية نجد، وكانت هذه القبائل تمتاز بخشونتها وجرأتها وحبها للغارات طبقًا لعادات الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يقصد كل تجمع تعقده بقصد تهديد المسلمين أو النَّيْل منهم فيفرقه بهدوء ويكتفي ﷺ بهرب عدوه منه فيرجع.

ج ـ المنافقون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

والمنافقون قوم أبناء عمومة الأنصار أبطنوا الكفر وأضمروا العداء، ثم أعلنوا الإسلام وتظاهروا بالمحبة الصافية وانتحلوا الإخاء المصفَّق (الصافي) واصطفوا الود المتحول، وإن قلوبهم لتنطوي على المرض والحقد والغدر والمكر، زعموا أن سيوفهم مع المسلمين، صدقوا ولكن قلوبهم كانت مع الكفار، وزعموا أنهم خالصون خيرون، كذبوا هم جبناء أخساء أشرار: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة]، لم يقولوا كلمة الإسلام في صدق فينتظمون في عقد الأنصار، ولم يعلنوا الكفر واضحًا فيُجري عليهم الرسول ﷺ حُكم الكفار: مذبذبين بين ذلك: لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ ولهذا كانوا أشد ضررًا وأبلغ في الأذى أثرًا، إذ إن رسول الله ﷺ ما كان في استطاعته إلا أن يكتفي بظاهرهم ويكل إلى الله ما في سرائرهم، وكان ظاهرهم السلم والإسلام وباطنهم الكفر والكفران، وظلوا على هذا شوكة في جنب المسلمين وقذى في العيون وقرحة في الأكباد.

[قصص القرآن ـ محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ص ٣٥٣: ٣٥٧].

ولما كان المنافق يمتاز بخسة النفس والحقد والجبن الذي يمنعه من التصريح بدخيلته؛ لذا دأب المنافقون على محاربة المسلمين ويغرون الأعداء بهم، وكان على رأسهم عبد الله بن أُبي بن سلول الخزرجي الذي كان يطمع في الوصول إلى زعامة الأوس والخزرج، ولا يمكنه أن يحقق أطماعه الخبيثة ما دامت الدعوة الإسلامية قائمة، فكان يتربص بالمسلمين الدوائر، وكانت كلما ازدادت القوة الإسلامية شوكة ازداد ابن أُبي نفاقًا، وقد نزل عليه وعلى أتباعه نصر بدر نزول الصواعق.

وكان ابن أُبي يعتد ويعتز باليهود ويدخرهم لنصرته؛ يتضح ذلك من موقفه في حادث بني قينقاع إذ أدخل يده في جيب رسول الله ﷺ وهو يقول: «**لَا وَاَللهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ، أَربعُمَائَةٍ حَاسِرٍ**(الذي لا درع له) **وَثَلَاثِمَائَةٌ دَارِعٍ** (الذي عليه الدرع)، **قَدْ مَنَعُونِي مِنْ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إنِّي وَاَللهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ**». [سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩، ومغازي الواقدي ١/ ١٧٧-١٧٨].

ولم يمنعه من نصرة اليهود وقتال المسلمين سوى جبنه وعدم ثقته في نفسه وفي قوة أتباعه [(١)].

د ـ اليهود: لا يخفى أن اليهود كانوا إبان البعثة النبوية قوة كبيرة في شمال الحجاز تعادل قوة قريش في جنوبه، ومعنى ذلك أن الحجاز كان مقسومًا بينهما قسمة طبيعية، فنفوذ قريش يشمل جنوبي الحجاز من المدينة حتى الطائف، ونفوذ اليهود يشمل شماليه، وكان يمتد من المدينة حتى تيماء، وهي واقعة في أقصى حدود الحجاز الشمالية، ولولا الزعامة الدينية التي كانت تتمتع بها قريش بين العرب وما كان لها من مقام أدبي وديني في نَظَرهم لحراستها البيت الذي يقدسونه ويحجون إليه، وقيامها على خدمته وسدانته، لقلنا إن نفوذ اليهود كان أكبر؛ لأنهم أكثر ثروة وغنى وأوفر سلاحًا؛ ولأن بلدانهم كانت حصينة وكانوا يسيطرون سيطرة فعلية على اقتصاديات شمالي الحجاز، وكانت زراعته أيضًا في أيديهم، وما كان للعرب في مناطق اليهود أي نشاط اقتصادي، بل كان معظمهم يشتغلون أُجراء لديهم يعملون على تنمية زراعتهم ويخدمونهم بالأجرة، ولا شك أن هذا الفقر الذي نشره اليهود في هذه المناطق كان من العوامل الهامة التي أدت إلى كثرة الحروب بين العرب وخصوصًا بين الأوس والخزرج حتى أنقذهم رسول الله ﷺ من هذه الفوضى التي كانوا يعيشون في حمأتها.

وكانت مناطق اليهود في شمال الحجاز موزعة كما يلي:

منطقة المدينة، وتشمل:

١ ـ بنو قينقاع داخلها وتعدادهم = ١٤٠٠

٢ ـ بنو قريظة في جنوبها الشرقي = ١٥٠٠

٣ ـ بنو النضير في بطحان غربها = ١٥٠٠

---

(١) افتضح أمره في غزوة بني المصطلق كما سيأتي تفصيله في الحديث عنها .

٤ ـ بطون نازلة بين الأوس والخزرج = ٦٠٠

المجموع = ٥٠٠٠

منطقة خيبر وأهلها أشد اليهود قوة وأوسعهم ثراء، وتشمل:

١ ـ خيبر وتعدادها = ٣٠٠٠

٢ ـ وادي القرى = ٥٠٠

٣ ـ فدك = ٥٠٠

المجموع = ٤٠٠٠. [غزوة أُحد لخلف الله ١٠-٢٣].

الجو العام قبل غزوة أُحد:

يقول أ/ كولن: «لقد أدت هزيمة معركة بدر إلى إثارة حقد وغيظ مشركي مكة ولاسيما عند أولئك الذين قُتل أقرباؤهم أو أبناؤهم، فهؤلاء كانوا يثيرون أهل مكة على الدوام ويحرضونهم على الانتقام وعلى أخذ الثأر.

ولم تكن جهود الإثارة منحصرة في مكة فقط، فقد كانت هناك جهود مبذولة في المدينة أيضًا في هذا الاتجاه بوساطة كعب بن الأشرف، وكان هذا يهوديًّا يحاول إلقاء الفتنة بين المؤمنين بأشعاره التي يشبب بها بنساء المسلمين ويفتري عليهن، بل إنه لم يتورع من مد لسانه القذر إلى الرسول ﷺ نفسه، ومع أن المسلمين كانوا يحسون بضيق شديد من هذا الوضع إلا أنهم كانوا دائمًا يجابَهون بصبر الرسول ﷺ وحلمه ونظرته البعيدة.

بدأ المشركون أيضًا بترتيب السرايا، فقد تعلموا هذا وبدأوا يحاولون بترتيب هذه السرايا التي كانت تقوم بأعمال النهب والسلب وإضعاف الروح المعنوية لأهالي المدينة.

وكانوا أحيانًا ينجحون في هذا، واستمر هذا طوال سنة بعد معركة بدر، وبدأ المكيون يضايقون أهل المدينة مضايقة الجراثيم للجسم؛ لذا كان من الضروري حفظ المدينة ـ المؤهلة لأن تكون مهدًا للمدنية ـ من جميع الجراثيم الضارة، وهذا ما فعله الرسول ﷺ.

في هذه الفترة قُتل كعب بن الأشرف أعدى أعداء الإسلام؛ لأنه كان على رأس شبكة خائنة، فكان قتله ضروريًّا، وقام محمد بن مسلمة ﷺ بهذه المهمة.

[ينظر: البخاري المغازي ١٥ - ١٦، مسلم، الجهاد ١١٩، السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٥٨].

وبدأ يهود بني قينقاع بإثارة المتاعب فقد تَحَرَّشوا بامرأة مسلمة، وفي حادثة الشغب التي أعقبت هذا التحرش قُتل رجال من الطرفين، ولم يكتفوا بهذا بل قالوا للرسول ﷺ وهم مطمئنون إلى قلاعهم

الحصينة: **يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغِرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ القِتَالَ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ قَاتَلتنَا لَعَرَفْت أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنَّكَ لَمْ تَلقَ مِثْلَنَا.**

فتوجه إليهم الرسول ﷺ لأنهم برهنوا أنهم أناس لا يمكن الاطمئنان إليهم، وأنهم على استعداد دائم لإثارة الشغب والمشاكل، وقد ندم اليهود على فعلتهم واضطروا إلى الاستسلام، ولكن الرسول ﷺ أخرجهم من المدينة لأنه لم يكن مطمئنًّا إليهم.

وبخروجهم أصبحت المدينة المنورة أكثر أمانًا.

في هذه الأثناء كانت مكة تغلي، فقد أقسم أبو سفيان أن لا يمس الطيب حتى ينتقم من المسلمين، حتى إنه أتى مرة إلى المنطقة التي يسكنها يهود بني النضير وأشعل النار في بيت أو بيتين من بيوت المسلمين ثم هرب إلى مكة». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٦٧-٦٨**].

ويقول أ/ الشافعي: «غفت عين المدينة بعد جلاء بني قينقاع عنها، وانكمش غير المسلمين من ساكنيها، وسادت ربوعها موجة من الهدوء بعد هذه العواصف التي كانت اليهود مثارها.

ولم يركن النبي ﷺ إلى استقرار الأمر له، كما لم يُخْدَع من قبلُ بما أحرزه من نصر، ولم يغفل عما يُدبَّر له في غده، فهو يعلم أن لقريش على العرب سيادة لا تزال، ولن يَغمض لها جفنٌ قبل أن تأخذ بثأرها منه، وما حادثة قافلة «صفوان بن أمية» ببعيد.

إن بُعد نظر النبي ﷺ وفطنته السياسية يوجبان عليه أن يُعد للأمر عُدته، وأن يَحسب لطوارئ الليالي حسابها.

لقد حصَّن جبهته الداخلية، فوطَّد الروابط بينه وبين أصحابه فصفُّهم وراء قيادته قويٌّ متماسك، وقلوبُهم تفيض له حبًّا وبه تمسكًا، وكَفل لأصحابه من القوة ما جعلهم أكفاء لكل مواجهة».

[**غزوة أحد للشافعي ٢٨-٢٩**].